

التجارة العربية ودورها في تواصل العلاقات بين العرب وشبه القارة الهندية

د. بلال أحمد زرغر

الزميل ما بعد الدكتوراه قسم اللغة العربية جامعة كشمير

الملخص:

مما لا ريب فيه ان عددا كبيرا من المدائن المتجاورة يقع على ساحل المحيط الهندي التي لا ينفصل بينها حتى يعتقدون بعض المؤرخين بأن هذه السواحل وسكانها لصارت شعوب نسيج واحد. فمن الطبيعي أن تمتاز هذه المدائن الساحلية بالنشاط التجاري من تبادل السلع والمنتجات بين رواد ذلك الساحل. وكان للتجار العرب مع الهند دور بارز في ذلك النشاط التجاري الذي ازدهر معه تبادل الثقافات والأفكار حتى تزدهر بها تبادلات الديانات والمعتقدات. إذ كان التاجر العربي سفيرا لقومه ورسولا لدينه وداعيا للغة، فلذلك تحصل بينهما احتكاكات وارتباطات سواء أكانت تجارية أو اجتماعية أو ثقافية وقد تآدى هذه الاحتكاكات والارتباطات إلى التأثير والتأثر بين اللغة العربية وبين اللغات الساحلية الهندية ، وتكون هذه التأثيرات و الانفعالات عميقة و وثيقة بقدر ما تكون العلاقات وطيدة وراسخة، فقد أثرت فيها العربية مباشرة من خلال سماع المولود للأذان، وتسمية المواليد بالأسماء العربية، والتعليم الابتدائي باللغة العربية؛ فكل عائلة مسلمة في شبه القارة الهندية لا بد أن تعلم أطفالها القرآن الكريم، كذلك استخدام الناس الأدعية في حياتهم اليومية من الآداب النبوية، وأداء الفرائض اليومية، وقد كانت هناك صلات تجارية قديمة بين العرب وشبه القارة الهندية، كما أن فتح الإسلام "السند" وترك آثاره العميقة. واني قد قسمت هذه المداخلة في ثلاثة مباحث. المبحث الأول يتعلق عن تاريخ العلاقات التجارية بين العرب وشبه القارة الهندية، وأما المبحث الثاني فيتحدث عن تاريخ العلاقات الثقافية والحضارية بين الهند والعرب، والمبحث الثالث يشير إلى عوامل ومراحل انتشار اللغة العربية والعلوم الإسلامية في شبه القارة الهندية.

تاريخ العلاقات بين العرب وشبه القارة الهندية:

تذكر لنا كتب التاريخ أن الصلات التجارية بين أهالي شبه القارة الهندية والعرب كانت قائمة قبل الإسلام ويذكر هذه الحقيقة الدكتور عبد المنعم النمر قائلاً: "إن الصلات التي كانت قائمة بين الهند والبلاد الغربية قبل الميلاد كان التجار العرب واسطة هذه الصلات بل كانوا هم أكثر أهل البلاد الغربية صلة بالهند فبلادهم قريبة من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند وسفنههم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بأهل الهند (١)"

ويؤكد على ذلك د/جميل أحمد قائلاً: "فإن أقدم العوامل الرئيسية التي تمهد بها السبيل للصلة اللغوية بين شبه القارة الهندية والباكستانية والعرب الملاحه العربية في المياه الهندية قبل الإسلام بمئات عديدة من السنوات ونتج عنها التفاهم على تبادل البضائع والسلع^(٢)" ومما تجدر الاشارة هنا أن العلاقات الاجتماعية بين العرب والهند بجانب علاقاتها التجارية وثيقة وعميقة منذ بدأ الاتصالات بين هذين البلدين ويؤكد ذلك ما ذكره د/سيد رضوان علي الندوي قائلاً: "إن سواحل الهند الغربية والموانئ الواقعة عليها كانت معروفة لدى الجزيرة العربية منذ أقدم العصور بسبب الصلات التجارية بين موانئ هذه السواحل وبين السواحل العربية في الخليج وسواحل اليمن وذلك قبل أن يرى العالم نور الإسلام كما أن هذا من المعروف أن عددا كبيرا من العرب والإيرانيين قد استقروا من القرن السابع

١. د/عبد المنعم النمر تاريخ الإسلام في الهند الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة مصر الطبعة الأولى 1990 ص ٦٠.

٢. د/جميل أحمد حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي- باكستان دون ذكر سنة الطبع ص ٥.

الميلادي في موانئ الساحل الغربي للهند وتزوجوا بنساء محليات وإن في مالابار (كيرالاحاليا) التي عرفت (٣) بتشجيعها للتجار كانت مثل هذه المستوطنات كبيرة ومهمة^(١). فإن هذه الأدلة القاطعة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن العلاقات التجارية والاجتماعية بين العرب وأهالي شبه القارة الهندية قبل الإسلام كانت سببا لزرع بذور اللغة العربية في شبه القارة الهندية . لقد وفد إلى الهند كثير من العلماء والأدباء العرب عند الفتح الإسلامي واختلطوا بأهل البلاد فأثروا فيهم تأثرا ملموسا في مجال الثقافة والعلم منهم الربيع بن صبيح البصري أشهر المحدثين قدم مع الجيش الذي سيره المهدي لغزو الهند عام ١٥٩ هـ.^(٢)

(ويقول د/رينولد نكلسن): "إن اللغة العربية كانت في أوائل القرون الوسطى لغة الكلام والكتابة لجميع المسلمين المثقفين على اختلاف قومياتهم من الهند إلى المحيط الأطلسي"^(٣). هذان النصان يلقيان الضوء على هذه الحقيقة أنه في عصر الحكم العربي في منطقة السند لشبه القارة الهندية تركت اللغة العربية أثرا واضحا وجليا في ثقافتها وتجلي هذا الأثر في أنها سادت وأصبحت لغة الكتابة والإدارة الحكومية في معظم مناطقها من ناحية ولغة التعليم والتعلم في الأوساط العلمية والأدبية من ناحية أخرى. يمكن لنا أن نبين تأثير اللغة العربية بالثقافة الهندية من خلال النص الآتي حيث يقول: "كذلك كان الجانب العربي قد تأثر

١. د /سيد رضوان علي الندوي اللغة العربية وأدائها في شبه القارة الهندية الباكستانية عبر القرون منشورات جامعة كراتشي باكستان الطبعة الأولى ١٩٩٥م ص٢٧-٢٨، وأنظر أيضا د. أحمد معوض، باكستان المعاصرة الدار العربية لنشر الثقافة العالمية القاهرة سنة ١٩٧٦م، ص٧.

٢. د/محمود محمد عبد الله ، اللغة العربية في باكستان دراسة وتاريخا ، من منشورات وزارة التعليم الفيدرالية إسلام آباد- باكستان الطبعة الأولى ١٩٧٦م ، ص١٨.

٣. نكلسن، ترجمة د /صفاء خلوصي، تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة المعارف بغداد عراق ١٩٦٩ م ص٢١.

قديمًا من الاحتكاك الاقتصادي بالهنود ولغاتهم فقد تسرب إلى اللغة العربية عدد كبير من مفردات اللغات الهندية على سبيل مثل كلمة (قرنفل) كلمة هندية تستخدم بالعربية كما أنه تقدم عدد من علماء السند للمساهمة في الحركة العلمية ببغداد بنقل علومهم الرياضية والطبيعية وآرائهم الفلسفية إلى العربية حتى ذاع صيت العلوم الهندية القديمة بين المثقفين من العرب^(١).

مراحل انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية:

المرحلة الأولى: إن المرحلة الأولى لانتشار الإسلام في شبه القارة الهندية تبدأ بظهور الإسلام في جزيرة العرب إلا أن أشعة نور الإسلام كانت ضئيلة حينذاك في هذه المنطقة الهندية وهذا ما يذكره د /عبد المنعم النمر قائلا : "و حين ظهر الإسلام ودخل العرب في دين الله أفواجا كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وغيرهم، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها، وكان من الطبيعي أن يتحدث هؤلاء في حماس وإيمان عن دينهم الجديد، وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم، يدعو الناس إلى التوحيد والأخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعا، وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه ديانتها، ولذا وجد الإسلام في الهند أرضا خصبة سهلة، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام، وأقاموا المساجد، وباشروا شعائرهم في حرية تامة لما كان للمسلمين والعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكام باعتبارهم أكبر عوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدر

١. د/جميل أحمد حركة التأليف ص ٣٥-٤٣ ، وانظر أيضا ، عربي أدبيات مين باك وهند كا حصه (مساهمة الهند وباكستان في الآداب العربية) د /زبيد أحمد ، ترجمة أردية لشاهد حسين رزاقى ، إدارة ثقافة إسلامية ، كلب رود لاهور باكستان . وانظر أيضا M.G. Zubaid Ahmed , (Contribution of Indian and Pakistan to Arabic Literature) Ashraf Press Lahore Pakistan , Second Edition, 1967 Page No. 5

على هؤلاء الحكام الدخل الوفير^(١). يتضح من هذا النص، أن الأضواء للعقيدة الإسلامية بدأت تظهر في ناحية من نواحي شبه القارة الهندية عند ظهور الإسلام في المجتمع العربي كما أنها جهود فردية سلمية هادئة غير منظمة لنشر دعوة الإسلام في الهند.

المرحلة الثانية: إن المرحلة الثانية تختلف عن المرحلة الأولى حيث إنها تشتمل على جهود سياسية والهدف منها نشر العقيدة الإسلامية وإعلاء كلمة الله عزّ وجل بأسلوب منظم سياسي. يقول د/عبد المنعم النمر: "قد ظل القواد المسلمون يطرقون أبواب الهند ويصيّبون من أطرافها حتى كان زمن الحجاج بن يوسف عامل الوليد بن عبد الملك على العراق وبدأت الحملة القوية المنظمة تتجه إلى الهند لفتحها وضمها إلى رقعة البلاد الإسلامية وقد وجه الحجاج أولاً بعد قواده إلى هذه البلاد ولكنه فشل في مهمته فرأى أن يوجه حملة أخرى جعل على رأسها ابن أخيه الشاب الشجاع محمد بن قاسم الثقفي وذلك سنة ٩٢هـ- ٧١١ م وكان عمره إذ ذاك لم يصل إلى العشرين ثم دار قتال انتهى باستيلاء المسلمين مدينة (ديبل) أي منطقة السند (أحد من الأقاليم الباكستانية حالياً) وبني لهم مسجداً هناك^(٢)"

مراحل انتشار اللغة العربية: عندما تتبعنا الآثار لانتشار اللغة العربية في شبه القارة الهندية وجدنا أنها من الممكن أن تنقسم إلى عدة مراحل.

المرحلة الأولى: هذه المرحلة تحتوى على بداية القرن الأول للهجرة إلى نهايته حينما قام محمد بن قاسم الثقفي بفتح السند، وفي هذه المرحلة لا نجد إلا نقطتين هامتين إحداهما: أن العرب قاموا بإيجاد العلاقة التجارية والاجتماعية مع أهالي الهند، وثانيتهما: عند طلوع فجر الإسلام انتشرت اللغة العربية بحكم كونها لغة دستور الدين الإسلامي القرآن الكريم والوسيلة الأساسية للوصول إلى معانيه.

١. تاريخ الإسلام في الهند د/عبد المنعم النمر ص ٦٠.

٢. المصدر السابق ص ٧٤-٧٣.

المرحلة الثانية: هذه المرحلة تمتد إلى بداية الحكم العربي إلى عهد الغزنويين وفي هذا العهد أثرت اللغة العربية على الثقافة الهندية وتأثرت بها تأثرا بسيطاً.

المرحلة الثالثة: هذه المرحلة تبدأ من العصر الغزنوي وتنتهي إلى عهد المغول بما فيها من عهد السلاطين وتتعرف على حالة اللغة العربية في شبه القارة الهندية في هذه الفترة من الزمن من خلال النص الآتي حيث يقول: " في القرن الخامس الهجري انتقل حكم بلاد السند والملتان من العرب إلى أهل الفارس وروجوا اللغة الفارسية في تلك البلاد مكان اللغة العربية لأن الفارسية كانت لغة الغزنوية بذلك صارت الفارسية منذ ذلك العهد لغة الثقافة والعلم في بلاد السند والملتان بل أيضا في بعض أجزاء من بلاد الهند إلا أن اللغة العربية لم تفقد أهميتها العلمية والروحية التي لاتزال باقية في تلك المناطق وفي أيام المماليك هـ (٦٨٨ هـ - ٦٠٢ هـ) ٦٠٢-٦٠٧ (٦٠٢ هـ) وعلى رأسهم قطب الدين ومملوك محمد الغوري الذي تولى الملك بعده نسمع لأول مرة عن مدارس منتظمة ومعاهد حكومية تحت رعاية السلطان بل يرجح تأسيس أول معهد من هذا النوع إلى محمد الغوري مؤسس الدولة الغورية في أجمير وذلك بعدما احتل جتوز ولكن امتازت بشهرة المدرستان المعزية والناصرية بدار الملك دلهي (١) ."

في هذه العصور نجد أن اللغة العربية كانت تحارب باللغة الفارسية إلى جانب اللغات الأخرى المحلية وإن كانت الغلبة في صالح اللغة الفارسية بحكم كونها لغة الإدارة والشئون الحكومية إلا أن اللغة العربية لم تفقد أهميتها في هذه المنطقة وخاصة نرى في عصر الغوري التقدم الملحوظ نحو انتشار اللغة العربية ألا وهو قيام المدارس الدينية التي كانت بمثابة معاهد اللغة العربية.

المرحلة الرابعة: هذه المرحلة تبدأ من عصر المغول وتنتهي إلى عصر

١. الأدب العربي في شبه القارة ، جامعة العلامة إقبال المفتوحة إسلام آباد الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ص ٣٤. إلى ٣٦.

الاستعمار البريطاني في الهند ويبين النص الآتي حالة انتشار اللغة العربية في هذه المرحلة حيث يقول: يبدأ عصر المغول في سنة ٩٣٢هـ بفتح ظهير الدين بابر شاه التيموري مؤسس الدولة المغولية الذي كان عالما كبيرا باللغة العربية^(١) واتسعت هذه الدولة في عهد جلال الدين أكبر اتساعا كبيرا ويمتاز عهده بحركة علمية قوية فقد جمع في بلاطه علماء وحكماء وأدباء أجلاء من داخل البلاد وخارجها أمثال أبي الفيض فيضي المفسر والأديب في العربية ونقلت في عهده روائع من الآداب العربية كمعجم البلدان لياقوت وحياة الحيوان للدميري وغيره من العربية إلى الفارسية ومن علماء هذا العصر الكبار الذي كان لهم إنتاج لغوي وأدبي في العربية هو أبو الفيض فيضي صاحب تفسير سواطع الإلهام في صنعة الإهمال (أي في الحروف غير المنقوطة) أما سلطان محي الدين أورنك زيب عالمكير هو من علماء السلاطين كان يجيد اللغة العربية والفارسية كما كان عالما فقيها حافظا للقرآن الكريم ومن آثاره العلمية العظيمة الفتوى الكبرى في ستة مجلدات ضخمة الموسومة بفتاوى عالمكيرية المعروفة في البلاد العربية بالفتاوى الهندية وقامت بتأليفها لجنة علمية مكونة من عشرين عالما^(٢).

عرفنا مما سبق من التصريحات أن اللغة العربية كانت على موضع الاهتمام عند بعض السلاطين المغول كما أنهم كانوا يبذلون جهودهم في إخراج الكتب باللغة العربية مما يقوم الدليل على ذلك أن اللغة العربية كان يهتم بها العلماء والسلاطين إلى جانب اللغة الفارسية التي كانت لغة إدارة البلاد وشؤونها. المرحلة الخامسة: هذه المرحلة تبدأ من استيلاء البريطانيين على الهند سنة

^١ . Promotion of learning in India Long Mans green and company London 1916

.Law Page No. 121 Narendra Nath

^٢ . د/ السيد رضوان، اللغة العربية وأدائها في شبه القارة الهندية عبر القرون من ص ٢١٢

إلى ص ٢١٥.

١٨٤٨م وتنتهى إلى تقسيم الهند سنة ١٩٤٧م. ونحاول أن نتبع حالة اللغة العربية في هذه الفترة من الوقت من خلال التصريح الذي جاء به دكتور محمود محمد عبد الله حيث يقول: "كان أول فكرة للحكومة البريطانية أن تروج فيهم نظاما جديدا للتعليم والتربية الذي يتفق مع أهوائهم وأفكارهم مما جعل العلماء يتصدون له بالإنكار والمعارضة والذي يهمننا في هذه الفترة هو حركة التأليف باللغة العربية فقد استمرت بغير ضعف بل ازدادت قوة وصلابة ونهضت الأنشطة الأدبية إلى مستوى عال وكثر روادها ويشهد على ذلك ما خلفه العلماء من المؤلفات العربية التي تدل على رسوخهم في العلم وتعمقهم في اللغة أمثال العلامة عبد الحى اللكنوي صاحب نزهة الخواطر والنواب صديق حسن خان القنوجي صاحب كتاب أجمد العلوم والشيخ أحمد رضا خان البريلوي صاحب الفتاوى الرضوية والشيخ أشرف علي التهانوي الذي ترك عددا ضخما من الكتب القيمة وغيرهم من العلماء.^(١)".

يوضح لنا هذا النص أن اللغة العربية واجهت العقبات والصعوبات في نشرها حيث إن الإنجليز كانوا يريدون أن يقضوا على تلك الوسائل العلمية التي تساعد على التفهيم والتقريب إلى القرآن والحديث أو بعبارة أخرى أن يروجوا ذلك النظام الذي يخدم أفكارهم ونظرياتهم لا أفكار المسلمين ولغتهم إلا أن العلماء المسلمين الغيورين لم يتوقفوا ولم يلتفتوا إلى ما اتخذ الإنجليز من إجراءات ضد الدراسات الإسلامية والعربية عامة وظلوا يخدمون اللغة العربية وكتاب الله القرآن الكريم بإخراج الكتب القيمة باللغة العربية وشرح معاني القرآن الكريم

بعد هذه الرحلة السعيدة حول الموضوع "أثر اللغة العربية في اللغات والثقافات الهندية" وصلنا إلى بعض النتائج وملخصها ما يلي:- يبدأ تاريخ الأثر للغة العربية على ثقافة المسلمين في شبه القارة الهندية بوصول الإسلام في هذه المنطقة كما أنه كلما مرت الفترة الزمنية بعد وصول الإسلام في هذه المنطقة زاد أثر اللغة

١. اللغة العربية في باكستان دراسة وتاريخا ص ٦٨.

العربية في ثقافة المسلمين , إلى أن اللغة العربية أصبحت لغة الحياة العامة في منطقة السند (أحد الأقاليم الباكستانية حالياً) في القرن الثالث للهجرة , وكما أن اللغة العربية واجهت الصعوبة البالغة في نشرها في شبه القارة بسبب وجود اللغة الفارسية وجوداً قوياً بسبب كونها لغة الفاتحين من الفارس, وحينما انتشر العلوم الإسلامية العقلية التي كانت باللغة العربية تركت أثراً واضحاً في عقول المسلمين وثقافتهم في شبه القارة الهندية, وهذا كله يبرز العلاقة المتينة والارتباط الوثيق باللغة العربية لمسلمي شبه القارة الهندية والأثر الواضح على ثقافتهم , و من الملاحظ أنه على الرغم من الجهود المكثفة التي بذلت ولا تزال تبذل في سبيل نشر اللغة العربية في شبه القارة الهندية، أننا لا نستطيع أن ننكر هذه الحقيقة المسلمة أن بعض القصور والعيوب والموانع والمشكلات ما زال يواجهها الأدباء وكتاب العربية في شبه القارة الهندية. ندعو الله تعالى أن يوفقنا جميعاً في حل هذه المشكلات لكي يعم نور اللغة العربية في البلاد الإسلامية العربية و غير العربية كافة. وبالله التوفيق والسداد.

المصادر والمراجع:

- ١) د. السيد رضوان علي: اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية عبر القرون، ط لاهور باكستان
- ٢) الأدب العربي في شبه القارة الهندية، جامعة العلامة اقبال المفتوحة، اسلام اباد باكستان
- ٣) د. عبد المنعم النمر: تاريخ الاسلام في الهند، ط اسلام اباد باكستان
- ٤) سيد سليمان الندوي: عرب و هند تعلقات، ط مجلس تحقيقات ونشريات لكنوء الهند
- ٥) د السيد قدرة الله الحسيني: عبد العي الحسيني مؤرخ الهند الأكبر، ط دار الشروق للنشر والتوزيع